المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 6

البحث اللساني والسيميائي

4-3-2 رجب 1401 / 7-8-9 ماي 1981

المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 6

البحث اللساني والسيميائي

4-3-2 رجب 1401 / 7-8-9 ماي 1981

عبده الراجحي (*)

النحو العربي واللسانيات المعاصرة

أولا أتقدم بخالص الشكر إلى جامعة محمد الخامس ولكلية الآداب والعلوم الانسانية ولقسم اللغة العربية ولكم جميعا أن أتيحت لي هذه الفرصة الممتازة لأن نتعرف – بمفاجأة غريبة – إلى عدد ممتاز جدا من شبابنا الباحثين ، وأحسب أن هذه الأيام من أغنَى أيامنا في البحث العلمي . وبعد فأرجو ألا أجد صعوبة كبيرة في أن أنتقل بنفسي وبكم من الشعرية والفجوة – مسافة التوتر إلى أن نتحدث عن النحو . في الحقيقة أن لجنة الندوة هي التي اختارت مشكورة لي هذا العنوان ولذلك أستميحكم عذرا في أن أتحدث فيه بغير ورقة مكتوبة .

العروض التي قدمت في هذه الندوة حتَّى الآن ، تثبت حقيقة واضحة جدا هي أن الشباب هنا على وجه الخصوص من أكثر الناس إقداما على ملاحقة التطور العالمي في البحث العلمي ، أقول هذا الكلام بالمقارنة بما يحدث الآن في الجامعات العربية جميعها تقريبا،ولذلك كانت مفاجأة كبيرة لنا لأننا منذ هذه الفترة نحاول على استحياء أحيانا وبحذر شديد أحيانا أخرى أن نقدم للناس ما يمكن أن نسميه بالمناهج الحديثة في البحث اللغوي ، لكن هذا كله يؤكد لنا حقيقة أساسية هي أننا وعلى الأخص في هذه الفترة من أشد الناس حاجة إلى أن يكون لنا منهج ، أو أن تكون لنا نظرية شاملة ، كافية للبحث اللغوي . ومن الاحساس بفكرة البحث عن

(*) كلية الآداب – الاسكندرية

منهج ، والبحث في منهج يكون الحديث عنه في مثل هذا العنوان «النحو العربي واللسانيات المعاصرة» .

هناك قضية أساسية قد تبدو واضحة جدا بالنسبة إلى من عانوا الدرس النحوي العربي وحاولوا الاتصال بعلوم اللغة الحديثة . هذه الحقيقة هي أنه من الخطر ومن الخطأ أن نتصور أن عندنا نحوا عربيا نكتفي به ونقول إن كل ما يحدث في العالم شيء غريب وليس منا ولا نقبله، لأن فيه خطرا شديدا على لغتنا أو على قرآننا أو على إسلامنا . خطر الجمود على الشيء الموروث خطر كبير ، وهو خطر علمي وإنساني، لكن خطرا آخر أيضا لا يقل عنه ، وهو ما يمكن أن يسمَى : «خطر المسخ» فمن الصعوبة جدا أن نتصور أو أن نقول إن هناك شيئا جديدا في العالم . وأنه هو الصالح لنا وأن هذا القديم غير صالح على الإطلاق ، ولذلك لا ننظر إليه وانما نحن نأخذ كل هذا الجديد ، ويؤدي هذا إلى نوع من المسخ البشري الذي أتصوره في غاية الخطورة أيضا .

أنا طبعا أنزهكم عن أن تتصوروا أن مثل الحل الذي أريد أو أحاول أن أبينه أن يكون شيئا من الوسطية ، ولكن الذي أجده واضحا جدا وأومن به ايمانا حقيقيا أنه قد لا توجد شعوب مغلقة ، نقية مختارة بالمعنَى الصحيح ، وإذا وجدت ففيها خطورة شديدة ، وهي تؤدي في النهاية إلى نوع من التحلل أو على الأقل إلى وجود أمراض خاصة واضحة . كذلك فإن فكرة الانبتات الكامل من الأرض فيه أيضا خطورة شديدة .

وهذه المسألة تتصل بفكرة البحث العلمي نقع فيها دائما في العالم العربي وهي فكرة البحث عما يسمى بالأصالة ، فنحن دائما ننطلق من عقدة تقول مثلا : النحو العربي أصيل ، الشعر العربي أصيل ، البلاغة العربية أصيلة ، الفكر العربي أصيل ، فكرة الأصالة التي تحركنا دائما وكأنها معبود خفي ، يمكن أن توقعنا في مشاكل كثيرة جدا ، وأنا أتصور أن كلمة الأصالة في حد ذاتها كلمة غير علمية ، لا يمكن تحديدها تحديدا واضحا ، لأنه ما معنَى أن نقول هذا الشيء أصيل «original» هل هو صنع شيء بدون سبق ؟ هل هو القديم الذي لا أول له ؟ وانما نحن نقترح الكلمة الانجليزية appropriation أو على الأقل «تملك» أو

ما يمكن أن نسميه بالناموس البشري الكوني ، وهو فكرة التمثل أو التمثيل تماما كما يشبه التمثيل الغذائي عند النبات ، أو التمثيل الغذائي عند الانسان،كما أننا لا نستطيع أن نتصور انسانا قد حصر نفسه في نوع معين من الغذاء يؤدي به إلى التحلل أو إلى المرض أو إلى الكساح ، كذلك لا نستطيع أن نتخيل انسانا يمكنه أن يستعير ذراعا أو أذنا أو قدما ، وإنما الذي نتصوره أنه لابد أن ينفتح على ما يستطيعه من غذاء ، لكن هذا الغذاء لابد أن يتمثل في داخله هو ، وأن يهضم من داخله هو ، وأن يكون النمو والتطور من داخله هو ، أي أنني في عرضي لقضية النحو لا أتصور التطور إلا من الداخل وليس من الخارج .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن ننطلق إلى بعض المسائل الخاصة بالنحو العربي وفيما يمكن أن نعرضه أمام الدرس اللغوي المعاصر ، أتصور مبدئيا أن النحو العربي باعتباره تراثا طويلا جدا ، لا ننكر أن من الجمل الدالة جدا في النحو العربي أن يقال إن النحو العربي هو العلم الذي نضج حتّى احترق من كثرة ما كتب فيه قديما ، ومن كثرة ما أشعل حوله من نار حتّى احترق هذا الطعام ؛ فالنحو طويل كالتاريخ ، ولكني أعتقد أنه يمكن الوصول إلى جوهره وإلى كنهه في غير صعوبة .

القضية الأساسية في فهم النحو العربي ألا نتصور أن النحو العربي هو مجرد هذه الشروح المتأخرة ، وكتب الألغاز أو كتب الأحاجي النحوية أو كتب الحواشي والتعليقات والشروح والهوامش ... ولكن النحو العربي كما يتمثل لدينا هو ذلك النحو الذي نشأ في الفترة الحيوية من الفكر العربي الإسلامي في القرن الثاني للهجرة ؛ كما وصل إلينا متمثلا في كتاب سيبويه ؛ وهذه الفترة بالذات هي التي تمثل لنا تصورا حقيقيا لمنهج التفكير العلمي أو البحث عند العرب وعلى هذا الأساس أقول إننا لا نستطيع أن نتخيل أن النحو العربي يمكن أن يدرس بمعزل عن الفكر أو الجو العقلي العام الذي كان موجودا في هذه الفترة ــ فترة نشأة العلوم الإسلامية ــ هذه القضية يمكن أن توصلنا إلى حد ما إلى طبيعة النحو العربي .

من الأشياء الموروثة عندنا في العلم أن يقال إن النحو العربي نشأ لمحاربة اللحن ؛ أن العرب والمسلمين خشوا أن يقع الناس في اللحن ، وبخاصة الذين دخلوا في الإسلام ، خوفا من انتشار اللحن وضعوا النحو العربي لمحاربة اللحن . هذه من

الأشياء الموروثة عندنا ، وأحسب أن مثل ترديد هذا القول يبعدنا كثيرا عن فهم طبيعة النحو العربي . النحو العربي فيما أتصور هو ككل علوم المسلمين نشأ في هذه الفترة لهدف محدد وواضح عندهم ، هذا الهدف هو فهم النص القرآني . هناك نص قرآني كان عليهم أن يقرأوه وأن يتلوه ويحفظوه وأن يستنبطوا الأحكام منه وأن يناقشوا الآخرين به .

العلوم الإسلامية فيما أتصور نشأت جميعها لخدمة هذا الهدف وهو خدمة النص القرآني وفهمه ، وكلمة «فهم» أضعها بين قوسين وأركز عليها لأنها توصلنا إلى الاتصال بعلم اللغة الحديث وإلى فهم النص القرآني ، طبعا هناك فرق كبير جدا بين علم يمكن أن ينشأ لمحاربة اللحن وعلم ينشأ لمحاربة الفهم ؛ لفهم نص أدرك المسلمون وآمنوا بأنه نص كبير وواسع ...

فكرة الفهم هذه جعلت النحو العربي غير معزول عن كل العلوم التي كانت موجودة بل يمكن أن يقال انك لا تستطيع أن تميز بوضوح بين نحوي وغير نحوي . إنما كانت المسائل كلها متواصلة ومتصلة ، ويمكن أن يقال : انه قد كان هناك نوع من الإستلهام ، وكان هناك نوع من التأثير المتبادل الشديد الوضوح بين العلوم الإسلامية جميعها ومن أبرزها النحو ، هذه القضية في فهم جوهر النحو توصلنا إلى الآتي :

العلوم الاسلامية التي كانت موجودة ، أبرزها علوم تبدو متناقضة الاتجاه ، فأول هذه العلوم هو علم قراءة القرآن ، وأنا أحسب أن بيئة المغرب من أفضل البيئات في دراسة القراءات القرآنية ، هناك علماء كبار في القديم خدموا هذا العلم خدمة كبيرة ولا زلت أيضا أتصور أن هذا العلم لا يزال بعيدا عن البحث العلمي المدقق ، بالرغم من أنه — في تصوري — يمثل منهجا في البحث ، في طريقة المسلمين في البحث اللساني . وقد يفوق علم مصطلح الحديث .

علم القراءات القرآنية من طبيعته أنه علم يقوم على التلقي المحض — النقل المحض — بمعنَى أن علماء القراءات قالوا ان فكرة قراءات القرآن سواء كانت سبعة أو عشرة أو قراءات شاذة ، لا تؤخذ كما يؤخذ علم الحديث ، إذ أجيزت الرواية بالمعنَى عند بعض العلماء ، وكان يكتفى في علم الحديث بان يحدث الشيخ تلاميذه

ثم يصرح لهم بعد ذلك أن يحدثوا عنه ، وعندنا في الكتب ما يفيد بأنه في بعض مجالس الاملاء في الحديث ، كان الشيخ يجلس وأمامه ما يزيد عن خمسين ألفا يسمعون منه الحديث ، وهو يملي عليهم ، وهناك أكثر من مبلِّغ — يعني مكان الميكروفون — يبلغ الحديث وهو يملي ولكن كان يمكن اجازة شخص بأن يحدث بعد السماع من الشيخ ، أما القراءات القرآنية فقد اشترطت شرطا في منتهَى الشدة ، وهو ما يسمَى «بالتلقي والعرض» التلميذ لابد أن يتلقَّى عن شيخه القراءة ، ولا يصح له أن يقرأ ولا أن يُقرئ الناس إلا بعد أن يعرض ما أخذه عن شيخه عليه ، لأن المسألة هنا ليست متصلة بالمعاني ولكنها متصلة بالأداء — بفكرة الأداء — وعلى هذا الأساس قال العلماء ان القراء تعمل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل وليس على الأفشَى في اللغة والأقيس في العربية — قانون من قوانين علم القراءات — معنَى هذا أن علماء القراءات هم علماء نقل ، وكلمة نقل هنا يمكن أن نسميها — مع الحذر الشديد — انه الشيء الوصفي المحض .

وعلى هذا نشأ اتجاهان

الاتجاه الأول : اتجاه كان موجودا ، طبعا تعلمون أن عددا كبيرا من النحاة كانوا قراء ، بل كان منهم من هو من القراء السبعة : أبو عمرو ابن العلاء هو قارئ البصرة ، الكسائي هو قارئ الكوفة ، أي أن اثنين على الأقل من القراء السبعة كانا من كبار النحاة ، فضلا عن أنه إذا تتبعنا تراجم معظم النحاة تقريبا نجد أن ابن الجزري مثلا ترجم لهم في كتاب «غاية النهاية في طبقات القراء» .

الاتجاه الثاني : اتجاه يكاد يبدو مناقضا تماما هو اتجاه الكلاميين ؛ اتجاه علم الكلام وأخص بالذات تأثيرات المعتزلة على وجه الخصوص ، في النحو العربي . فكرة العقل ، أو المعارف واجبة بالعقل قبل ورود السمع التحسين والتقبيح الذاتيان ، تناول الكون من وجهة نظر عقلية.علم الكلام له تأثير كبير جدا ، وهو أيضا متأثر بالنحو العربي . ثم يجمع هذين الاتجاهين ، علم الأصول — أصول الفقه — كما سمعتم بالأمس في الحديث عن الامام الشافعي مثلا حين تبلورت عنده فكرة الأصول ، نجد الأصول الأربعة : القرآن ، السنة ، الإجماع ، القياس . الجمع في الأغلب بين منهجي النقل والعقل . هذه الفكرة إذن يمكن أن تبلور لنا

جزءا مهما جدا من طبيعة النحو العربي في نشأته الأساسية أو كما ورد عند سيبويه بأنه يمثل الاتجاه النقلي المحض ، كما تأثر هو بالقراءات ، ويمثل الاتجاه العقلي أو الجمع بينهما كما ورد في الكلام وفي أصول الفقه .

هذا كله يمكنه أن يوصلنا إلى الحقيقة الآتية وهي التي يمكن أن تكون موضع نقاش الأمس ، وهو أنه لا يمكن أن نفهم القديم إلا إذا استطعنا أن ندرك نظرية المعرفة كما دعا الأستاذ الجابري أمس ، أنه لابد أن يكون فيه ايبستيمولوجية وأسس أنطولوجية في الفكر العربي الاسلامي وأتصور أننا نمر على كثير من قضايا النحو ومن التحليلات النحوية القديمة كأنها مسألة مستقلة ، وإنما لابد أن يكون هناك ادراك أولي للايبستمولوجية الاسلامية الأولى .

طبعا لا مجال هنا لنضع تفصيلات ، إذا كانت هناك مناقشة يكفي أن أشير فقط إلى أن فكرة الاسناد وفكرة التنظيرات المختلفة لتسمية الفعل بأنه مضارع مثلا دون أن يتحدث عن «الزمن» ، أو من أوضح الأمثلة كأن نسمع من الكلمات التي نسمعها من طلاب دارسي النحو ، انهم يشتكون من كلمة «تعلّق» ، وليس «تعليق» التي عرضها أمس الأستاذ الفاسي ، ليس التعليق في الأفعال القلبية ، ولكن التعلّق فيما يسمى بشبه الجملة ، لأن الجار والمجرور ، لابد أن يكون متعلقا بكذا ، أنا أشير — مجرد إشارة — انه لا يمكن تصور أن النحوي جاء بكلمة «التعلق» هكذا بكل بساطة ، وإنما كان صادرا في الواقع عن ايبستومولوجية خاصة وعن موقف أنطولوجي في الواقع من الكون وفي الحياة ، أبسط مثال أننا نعرف في النحو أن الجار والمجرور والظرف هما اللذان يسميان بشبه جملة ، وإذا نحن تأملنا الظرف سنجده في الأغلب مكانا أو زمانا وأن الجار والمجرور أيضا له دلالة زمانية أو مكانية ، إذا أخذنا كلمة من ، وإلى وعلى وفي الخ ...

فإذا أدركنا أن النحوي العربي لم يستطع أن يرَى هذه التركيبة اللغوية : كلمة مِنْ وإلى : كمشيت من البيت إلى الجامعة ، ويصر على أن «من البيت» شبه جملة متعلقة بالفعل «مشيت» ، ويقوم النحاة ليقولوا لنا إن التعلق هذا مسألة أساسية — وعلى الأقل عند البصرة — وأنه لابد أن يكون «من البيت» متعلق «بمشيت» ، وكذلك «إلى الجامعة» متعلقة بمشيت ، لأنه غير ممكن تصور البيت هنا إلا أنه

موضع ابتداء المشي وأن الجامعة انتهَى عندها المشي . وهم يصرون على القول : وقفت أمام البيت أو لعبت أمام البيت ، فتكون كلمة أمام مسرحا للفعل لعب ... ويقرر النحاة بأن تعلق شبه الجملة لابد أن يتعلق بمشتق ، أي بفعل أو ما فيه معنَى الفعل .

هل يمكن أن نتصور أن مثل هذه الفكرة لكي توصلنا إلى فكرة الرابطة التي تحدث عنها أمس في مائدة المنطق عند البصريين أنه كمثال ــ زيد في البيت ــ لا يمكن تصور البصري يستطيع أن يقول أن «في البيت» هو الخبر لكلمة زيد وأنه لابد أن يقول زيد موجود في البيت أو كائن في البيت أو مستقر في البيت . فشبه الجملة لابد أن يتعلق بشيء سموه محذوف خبر . نزعم بأن كثيرا جدا من هذه القضايا التحليلية للظاهرة اللغوية عند النحاة العرب صدر عن مواقف أنطولوجية وإبستيمولوجية ، بحيث يمكن أن نتلمسها حتَّى نضع الأشياء في إطارها السليم وأعتقد مثلا أن فكرة شبه الجملة بدلالته على المكان والزمان يمكن البحث عنها في فكرة «الحيز» عند المسلمين ، وأنه عند الكثير منهم أن الحيز عندهم ليس «خلاء» وأنه موضع «الأحداث» المعتزلة في بحث الصفات أشاروا إلى أن علم الله مثلا حادث ، قالوا حادث لا في محل ، واقتراح كلمة «لا في محل» هو نوع من التأكيد على ادراك القاعدة الأساسية بأن الحادث لابد أن يكون حادثا في «محل» أي في حيز .

ما أريد أن أركز عليه هو أن النحو العربي لا يمكن إدراكه أو فهمه أو مجرد التعامل معه من مجرد الأقوال العادية أو حتَّى يمكن أن نستعمل كلمة السطح التي جاءت عند النحاة ــ ولكن لابد أن نبحث عن الأسس الخلفية سواء كانت ابستمولوجية أو أنطولوجية وراء النحو العربي . النحو العربي اذن تكون في هذا الجو العام ، في هذا الفكر الاسلامي الشامل الكامل وتطور من داخله ، ونحن لا ننكر ما حدث من تأثيرات خارجية وأجنبية في العصر الحاضر ــ نحن كنا نتناقش بالأمس عن الحيوية العربية متَى توقفت مثلا إذا كان في القرن 3 أو 4 أو 5 للهجرة كل شيء لا يزال حيا ، أما حين تقرأ أي نحوي أو أي بلاغي من القرن الرابع أو القرن الخامس وهو يتحدث عن نحاة القرن الثاني أو علماء القرن الثاني كأنه يعيش معهم لأن المسألة حية جدا ومتطورة وهي موضع مناقشة كل لحظة

وفي كل حين على عكس ما نحن فيه الآن ، الفجوة اتسعت بيننا وبين هذا التراث الكبير الطويل التاريخ .

في العصر الحاضر بدأ علم اللغة الحديث مع أشياء كثيرة جدا من الخلط والاضطراب حين بدأنا نتصل بعلوم الغرب ، بالذات في مصر حين اتجه بعض الناس إلى دراسة علم اللغة الحديث ، وطبعا بعضهم يعلم جيدا أنه ما قبل فكرة Philology ، وحتّى فكرة الفيولوجية نفسها التي كانت منتشرة في الغرب في القرن الماضي ، دخولها إلى العالم العربي كان دخولا مضطربا وفيه أشياء كثيرة جدا من الخلط حين ترجم إلى كلمة فقه اللغة وما حدث من خلط في مسألتها .

لكن المهم حين جاء علم اللغة الحديث — اتصل به بعض أساتذتنا في الغرب وحاولوا إدخاله في الدراسة الجامعية ، كان الهدف الأساسي الذي قدمه دارسو علم اللغة الحديث أو دارسو Linguistics بشكله البنائي أو بشكله الوصفي المزعوم على رأي الأستاذ الفاسي كان الهدف الأساسي عندهم أنه مجرد نقد للنحو العربي أو ما يسمى بالنحو التقليدي أو هدم النحو العربي وأن هناك نظرية جديدة يمكن تطبيقها لكن في الواقع معظم الحركات التي تمت حتّى الآن لم تؤد إلى مواقف ايجابية بتقديم بديل حقيقي يمكن لمسه باليد ويمكن وضعه وتطبيقه بطريقة واضحة . النقد الذي تم حتّى اليوم يدور كله في فلك النقد الذي تم في أوربا للنحو التقليدي بأنه نحو أرسطي ونحو يبدأ بالمعنَى ونحو يبدأ بالتصورات العقلية .

وبعد ذلك عند السوسوريين بأن اللغة لابد أن تدرس في ذاتها ومن أجل ذاتها ولابد من الوصف المحض والتشريح الأفقي إلى كل الكلام الذي تعرفونه والذي تردد كثيرا .

القضية التي نوقشت أمس والتي نؤكد فيها جميعا أنه قيل فيها كلام كثير جدا لا تزال مرة أخرى في حاجة إلى تأكيد وهي محاولة ربط النحو العربي بأرسطو على وجه الخصوص ، نحن لا نرفض البحث في أي شيء إطلاقا ولا نحن ندافع عن النحو العربي بل بالعكس ، لابد أن يوضع كل شيء في اطاره الحقيقي .

قيل في يوم من الأيام بأن النحو العربي كله أرسطي تماما ، طبعا الاعتماد في هذا كان في الواقع على الكتب المتأخرة ، على الكتب التي جاءت بعد القرن الرابع ،

نحن نزعم أن فهم النحو العربي ينبغي أن يكون في المراحل المبكرة لأن كتاب سيبويه حقيقة هو الذي طبع النحو العربي كله تقريبا ؛ لأن كل الزيادات عبارة عن تفصيلات جزئية ؛ ليس هناك اختلاف في المنهج الحقيقي ومجرد دخول تأثيرات المنطق في التعريف أو في التعليل أو في غير ذلك لم تكن ادخال نظرية جديدة أو ادخال منهج جديد لكن في فترة سيبويه – تاريخيا – نحن لا نجزم بشيء من الناحية التاريخية ؛ ليست هناك مادة ملموسة يمكن أن نجزم بها عن فكرة أرسطية النحو العربي ؛ المادة العلمية الموجودة أمامنا تشير إلى الآتي :

المنطق الأرسطي مهتم بالقضية ؛ والقضية تعتمد في القياس على مقدمات ، والمقدمات قضايا ؛ والقضية أساسا جملة خبرية أي معها الحمل . وإذا كانت الجملة خبرية تبقَى الجمل الانشائية غير داخلة في عمل أرسطو إطلاقا أي أن نوعاً معيناً من أنواع الجمل غير داخل،يبقَى اذن الاكتفاء فقط بالجملة الخبرية،ولكن ليس أيضا كل أنماط الجملة الخبرية وانما الجملة الخبرية في نمط معين وهو وجود الاسم الذي هو عبارة عن موضوع أو كما نسميه في حالة الرفع ... كذلك أرسطو يؤكد بأن الاسم عنده هو الاسم المرفوع فقط . وأما الاسم المنصوب فليس اسما وانما هو حالات من الاسم .

وعلى هذا الاساس يصل إلى فكرة الفعل .. الفعل عنده لا يكون إلا الفعل الحاضر وأما الفعل الماضي أو غير الماضي فهو ليس فعلا وانما هو عبارة عن زمن الفعل .

فالتركيز الأرسطي تركيز محصور في نوع معين من البحث وهو فكرة الجملة الخبرية القائمة على فكرة الاسناد أو إسناد الحمل .

الشيء الثاني كان من القضايا الأساسية التي حتَّى الآن أخشى أن أقول انها قد دخلت فيما يمكن أن يسمى بالشائعات العلمية ؛ وللأسف نحن في عالمنا العربي بالضبط كما نخضع لكثير من الاشاعات في السياسة وفي الاجتماع وفي الاقتصاد أو غيره ، فعندنا أيضا نوع من الشائعات العلمية ، نجد عددا كبيرا من الشباب في أول بحث يكتبه ، نجد مجموعة قضايا وأحكام موجودة وهي كلها قائمة على أن فلانا قال قضية أو قال حكما معينا وهذا الحكم تووارث بطريقة معينة دون البحث عن أسسه

وعن أسبابه وأصبحت من المسلمات ، ولكنها في الواقع تدخل في الشائعات العلمية . إذا اخضعت لمجرد الفحص العلمي يمكن للمسألة أن تحقق إذا كانت شائعة علمية أو حادثة (علمية) .

من هذا القبيل ربط فكرة الاسم والفعل والحرف بما يسمَى بالتقسيم الثلاثي للكلمة عند أرسطو . ان أرسطو قسم الكلمة تقسيما ثلاثيا إلى ذات وحدث ورابطة ، في الحقيقة حاولنا أن نسأل نحاتنا وأساتذتنا الذين قالوا هذا الكلام . كان المفهوم عندنا حقيقة أن معظم نحاتنا لم يدرسوا منطق أرسطو فعلا ، ليس هناك اتصال مباشر بالنصوص التي قالها أرسطو ، وفي المقابل نحن نزعم أيضا أن بعض المناطقة الذين قالوا بفكرة التأثر لم يكن لهم اتصال حقيقي بالنحو العربي يعني الحكم هنا فاقد في الواقع مبرراته لأنه يلزم أن يكون هناك نص موجود أو نصوص موجودة يمكن في مقابلها أن نحكم إذا كان هناك نص : هل هو تقسيم ثلاثي أم لا ؟

ونزعم أيضا أنه بمحاولة الرجوع إلى كثير من النصوص لم نجد أرسطو خصص موضوعا معينا في كتب المنطق لأقسام الكلمة ونترك كتاب الخطابة أو الشعر أو غيره لا نجده في كتب المنطق يقول إن الكلمة عبارة عن ذات وحدث ورابطة . انما هو تحدث في كتاب المنطق عن الجملة وعن الاسم وعن الفعل .

في كتب الشعر والبلاغة تحدث عن أنواع العبارة وتكلم عن أنواع معينة من الأدوات ، وذكر منها ستة أو سبعة أو ثمانية من بينها (syndesmoi) أو الرابطة ، ولا ندري لِمَ اختار بعض الناس كلمة الرابطة من بين هذه الأشياء الثلاثة لكي يضيفوها إلى الاسم أو للذات والحدث ويصير هذا التقسيم أرسطيا الا أن يكون فهمنا نحن لبعض النحاة المتأخرين ، حينما قالوا إن تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف هو تقسيم عقلي لا تخرج عنه لغة من اللغات ، نعم ان بعضا من النحاة المتأخرين ذكروا هذه العبارة على وجه اليقين أي أن هذا التقسيم تقسيم عقلي فنحن حكمنا على النحو العربي من خلال كثير جدا من القضايا التي قيلت في العصور المتأخرة .

ظل هذا النقد موجودا في هذه الفترة ، إلى أن جاء النحو التحويلي والتوليدي ، طبعا لا يزال يسير على استحياء معظم في جامعاتنا في المشرق وبحذر شديد وان كنا

نحذر دائما ألا يكون منهجنا هو أن نجلس وننتظر ما يأتي به الغرب ، ونحاول أن نطابق ما عند الغرب على شيء عندنا . يعني كأن العظمة العربية التي نفخر بماضيها هي أن ننتظر تشومسكي مثلا .

إلى آخر ما يحدث بفكرنا هذا بالضبط ببعض المسلمين الذين يقولون : عظيم جدا نحن عندنا القرآن وفيه كل شيء ولا يوجد علم ولا شيء ، العلم كل ما فيه موجود في القرآن ، وبعض شيوخنا في فترة من الفترات ظلوا يقولون نعم الأرض كروية كما ثبت أنها كروية عندنا في القرآن «كُوِّرَت» اذن هي كروية ، وبعض الناس يقول هي كالبيضة (والأرض بعد ذلك دحاها) الخ ، هنا منهج غير علمي ، نحن لا نقبله اطلاقا ، لكن نقول وهو الذي كنت أحاول أن أبينه في المناقشة بالأمس ، ان تطور البحث اللغوي المعاصر يدفعنا إلى أن نقول بأنه إذا كان عندنا هذا التراث الطويل فاننا في حركتنا بالانقطاع عن تطور العالم نثبت أننا غير جديرين بالتراث لأننا مقصرون في التراث تقصيرا كبيرا جدا حين ننقطع عن العالم ولا أريد أن أتصور أنه إذا كان سيبويه يعيش الآن أو الخليل ابن أحمد أو المبرد ، أعتقد أنهم كانوا قابلوا تشومسكي هنا وجلسوا معه وبحثوا معه بل ربما كانوا سبقوه الخ .

إذا كان النحو التحويلي أو التوليدي يعيد إلى النحو القديم شيئا من مكانته بالعودة إلى العقل وإلى المعنَى وإلى النحو الشامل ، نحن لا نزعم أن النحو العربي فيه هذه الأشياء ، لكنني أريد فقط أن ألفت إلى أن تشومسكي بعد أن كتب كتابه الأول توجه فعلا إلى البحث عن اللغة عند الديكارتيين .

ومجرد التوجه إلى الديكارتيين كان من فترة قريبة جدا مرفوضا عند اللغويين المعاصرين عند البلومفلديين وغيرهم . مجرد الحديث عن فيلسوف أو عن منطق هذا كان يبعد الانسان من ميدان علم اللغة ، لكن مجرد التوجه — أعني توجه تشومسكي — إلى دراسة اللغة أو المنظور اللغوي عند الديكارتيين ، هذا وحده يكفي لأن نقول إن الدعوة إلى فهم النحو العربي من اطاره الداخلي — من داخله من نظرية معرفية أنطولوجية عند المسلمين يمكن أن يساعدنا حقيقة على مواصلة البحث للحصول على نظرية كاملة في البحث اللغوي، وأعتقد أن مثل هذه المحاولة ليست محاولة انتظارية لأننا لا نيأس من شيء وإنما هي محاولة ضرورية جدا لأن نفهم وأن

ندرك وأن نواصل السير وأنا أحسب أن مثل هذه الندوة التي التقينا فيها وهي ندوة فريدة حقيقة في جامعاتنا العربية حين يلتقي الناس على هذا المستوَى من التفتح الذهني ومن النقاش ، أحسب أن مثل هذه الندوة ومثل هذا الجو الذي نلتقي فيه الآن كفيل أن يطور البحث اللغوي في العالم العربي على أساس التمثيل الغذائي الداخلي للانسان العربي ، وشكرا .